أفق ١٩. ٥

أفق مفتوح

في الذكرى الستين للنكبة

كلام إلى عقلاء الإسرائيليين

ناهض منير الريس

حتى متى تعتقدون أن بإمكانكم أن تحافظوا على تفوقكم الحالي ؟

إنه تفوق مكلف جدا . وديمومته مستحيلة . ووضعكم الإنساني فيه أشبه بخيط مطاطي مشدود عن آخره . وأنتم تعيشون بفضل مجموعة طويلة من اشتراطات التفوق التي تضمن بقاءكم . ففقدان أي منها يهدد الكيان كله تهديدا فوريا ساحقا .

تشترطون على أنفسكم أنكم يجب أن تظلوا متفوقين عسكريا وإلا فإن قوة عسكرية مضادة . إن ظفرت بفرصة اختراق لقوتكم ذات مرة . سوف تتغلغل داخلكم حتى العظم بسرعة ، لأنه ليس لديكم عمق استراتيجي في الأرض ولا في الروح . فإذا نفذت تلك القوة تحت جلدكم فإن طوفانا من الأعداء القريبين والبعيدين سوف يقتحمكم اقتحاما وحشيا يطابق أسوأ كوابيس الخائفين والمخوِّفين . وهذه الحقيقة شائعة حتى على ألسنة قادتكم . بل إنها الدعوى التي يعمد القادة إلى تعبئة زواركم بحججها وبراهينها وهم يطوفون بهم بالهليوكوبتر فوق قلقيلية خلال (الطقس) المعهود من طقوس كل زيارة زائر أجنبي ليقنعوه أن قيام إسرائيل باحتلال مزيد من أراضي الضفة لا يعدو أن يكون إجراء دفاعيا أمنيا ضروريا وضروريا جدا لإضافة (سماكة) وعمق إلى خصر إسرائيل الرقيق جغرافيا إلى هذا الحد . وحدثني ضابط فلسطيني . كان

قد درس في كلية أركان الحرب في الهند . عن أن معلما من معلمي الكلية ذكر له متعجبا أن أحد كبار الضباط الإسرائيليين الذين ناقشهم ذلك المعلم قال له إن إسرائيل مضطرة لأن تظل متفوقة دائما لأنها لا تستطيع أن تتحمل هزيمة واحدة ! أي أن الأمر يشبه المتفجرات التي يصبح الخطأ الأول في التعامل بها هو الخطأ الأخير .

فلننظر إلى الهدف الذي أراده القادة من إطلاع الضيوف الأجانب أصدقاء إسرائيل من هذا العرض بالهيليوكوبتر . إنهم أرادوا ويريدون أن يقيموا الدليل على أن (التوسع) ضرورة حيوية . وعند ذلك يهز مرشح رئاسي أمريكي مثل جون ماكين رأسه ويقول : حقا أنتم في محنة . فافعلوا ما شئتم لأننا نفهمكم ونؤيدكم .

وذلك كله كذب في كذب ودجل في دجل . لماذا ؟ لأن الأسلحة والطائرات في عصرنا تكتسب مدى أبعد بصورة مستمرة . والعمق الذي تريد إسرائيل اكتسابه من أراضي الضفة لا يقدم ولا يؤخر أمام مدى المدافع اليوم قياسا إلى الأمس فما بالك بمدى المدافع غدا قياسا إلى مدافع الغد اليوم ؟ وهذه البديهية معلومة للإسرائيليين الذين يلقون شروحهم وللخبيث الذي يهز رأسه . ولكن الأولين يريدون التوسع لأن التوسع مبدأ وليس حاجة . والثاني يوافقهم لأنه جاء يطلب أصوات اللوبي اليهودي في أمريكا وليس لأنه يجهل الحقيقة .

وكما أن ضم بعض الأراضي لا يزيد إسرائيل أمنا فإن الجدار الذي بنته لا يضمن ذلك الأمن . فبإمكان المصممين على اختراقه أن يحفروا تحته . وبإمكانهم أن يطيروا بالمنطاد من فوقه وبإمكانهم أن يبطلوا مفعول أجهزة الإنذار بواسطة تكنولوجيا مضادة .. أليس كذلك ؟

هذا وقد باخت أيضا نظرية نقل المعركة إلى أراضي العدو (الذي هو نحن العرب طبعا) . ويكفي أن نشير إلى حرب حزب الله مع أفضل وحدات الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان . ففي تلك الحرب برهن المقاتلون اللبنانيون على أن الروح المعنوية العالية مع الاستخدام الجيد للأرض وللفن العسكري قضى على الفكرة التي كان الإسرائيليون يعتمدون عليها قديما : وهي أن قواتهم تخترق أرض العدو كما تخترق السكين قالب الزبدة !

أما القنابل النووية التي تخزنها إسرائيل لحساب أمنها المستقبلي فلا يبدو أنها تقدم لذلك الأمن إلا قيمة افتراضية يسهل نقضها أو الرد عليها لأن العرب حتى وإن لم يملكوا هذا السلاح فهناك أسلحة تدميرية لا تقل مفعولا ولكنها أرخص تكلفة .

وأنتم تشترطون على أنفسكم أن تظلوا متفوقين سياسيا عن طريق احتكاركم السيطرة على مراكز القرار السياسي الأمريكي المتخصص في الشرق الأوسط . فهل من المعقول أن يستمر الأمريكيون بالقبول باستفزاز أهالي المنطقة التي تتركز فيها مصالحهم ؟ وكذلك معرفتكم بحاجات الدول المختلفة ومقايضاتكم الذكية معها مصلحة بمصلحة فلما كانت طاقتكم محدودة على دفع مقابل من لدنكم في كل صفقة مع الأمم المختلفة فقد عوضتم عن ذلك بعملكم وسيطا وسمسارا على حساب الولايات المتحدة . وأقنعتم دولة كالصين . مثلا . أنكم البوابة المضمونة لقضاء مصالح الصين لدى أمريكا . بل وتجسستم على الأسرار العسكرية الأمريكية وبعتموها أحيانا للصين .. وخرجتم من اللعبة سالمين لأن دالتكم على مراكز القرار الأمريكية أسطورية . فإلى متى تنجح ألعابكم ؟ وإلى متى يظل الكيان العربي . الإسلامي الهائل المجزأ غائبا عن

الوعي فاقدا سيطرته على ما في يده من الإمكانيات ؟ ألا ترون أن ثورة المعلومات والعلم والاختراع سوف تغير واقع هذه المنطقة بحيث يحين الوقت الذي تبلغ فيه الأجيال الجديدة من العرب والمسلمين رشدها وتنفض عنها الغفلة السياسية وسيطرة الأهواء ؟

وأنتم تشترطون على أنفسكم أن تظل لكم السيطرة الإعلامية على العقول في أمريكا والغرب عامة . وقد أصبحت استثماراتكم وصية على كل ما في بلاد الناس من وسائل إعلام . وسيطرتم على الإنتاج السينمائي في هوليوود ولم تكتفوا بهذا كله فانتقلتم إلى الأديان وتبنيتم الانحراف العقيدي الإيفانجيلي هناك وصنعتم له مدرسة ومولتم لها قنوات فضائية ومحطات إذاعية ودور نشر وخطوط هاتف مجانية بل وكنيسة بقضها وقضيضها هي كنيسة الأحد وأقطابها الأشد تطرفا في صهيونيتهم : أمثال بات روبرتسون الذي جاء به بوش ليقود الصلوات الصباحية في البيت الأبيض .

لقد أصبحت مشاريعكم الدعائية في الغرب مشاريع رأسمالية رسمية مسخرة تسخيرا واضحا لغرض سياسي وحيد هو هيمنة إسرائيل ومصالحها على الولايات المتحدة ومؤسساتها ! ولعمر الحق إن أي استعمار في العالم لا يقتضي ضحاياه أكثر مما تقاضيتم الأمريكيين . فإلى متى ؟ أتستهينون إلى هذا الحد بعقول الأمريكيين ؟ وهل تحسبون أن بساطتهم ستظل تبلغ حد البلاهة إلى ما لانهاية ؟ ألن تنكشف تلفيقاتكم يوما بعد يوم ؟

خلاصة القول إنكم بلغتم القمم التي لا صعود بعدها وإنكم ستؤلبون العالم عليكم جراء أفعالكم . وأما في بلادنا فلسطين والمنطقة العربية الإسلامية فقد فتحتم على أنفسكم حربا لا تنتهي . وقد مرت الذكرى الستون لنكبتنا التي هي

ذكرى تأسيس دولتكم . فهل هو شيء طبيعي في العرف الإنساني أن تكون فرحة كيان دولي هي ذاتها نكبة أمة تحيط به من كل جانب ؟

أسألكم يا عقلاء الإسرائيليين سؤالا بسيطا : ما هي القضية التي تظنون أنها سوف تستقطب الاهتمام القلبي والتكريس العملي للأجيال الشابة في المنطقة العربية الإسلامية خلال الأعوام الثلاثين القادمة ؟

أعتقد أن غير المكابرين منكم لن يماروا في الإجابة وأن غير السطحيين لن يعجزوا عن الرؤية . وسوف يقولون : إن قضية فلسطين ستبقى محركا أساسيا من محركات الوعي والفعل في هذه المنطقة جنبا إلى جنب مع قضية الثأر لما حل في العراق وأفغانستان من دمار وموت بالجملة .

أنتم تكسبون وقتا قليلا وأنتم أشبه بخيط مطاطي مشدود عن آخره . ولا يمكنكم أبدا الاستمرار في منع التفجرات بين الحين والحين في بلاد الجوار . وليس معقولا أن تظلوا تحكمون البلاد العربية المجاورة من وراء ستار . إن معادلتكم التي تعتمدون عليها في بقائكم لا تلائم هؤلاء الذين استجلبتموهم ووعدتموهم باللبن والعسل . وليس صحيحا ما قاله مناحم بيجن من أن التاريخ اليهودي بدأ من جديد بميلاد المقاتل اليهودي فإسبرطة نفسها لم تخلد في التاريخ ويبدو بعد القرون أن أثينا أعظم منها . كما أنه ليس صحيحا أن جورج بوش قادر على أن يعطي إسرائيل ضمانة ضد المستقبل .

اقبلوا الهدنة . وحولوها إلى صلح دائم على طريقة " إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها " . واحذروا فكرة يهودية الدولة فإنها المقتل الأكبر والبؤرة الأجلب للمتاعب . ولا تقولوا في أنفسكم : نحن قادرون أن نقص ريش العرب والمسلمين أولا بأول وبذلك نطوق الاحتمالات كلها بأفعالنا . فهذا هو

الذي يعود عليكم بردات الأفعال القاتلة . ولن يتاح لكم العيش إلا بفعل أهل المنطقة وبرضاهم . وأنتم تفهمون ذلك وتحاولون أن تكسبوا الناس أحيانا بالإحسان مسلكيا دون الإحسان سياسيا وتفرقون بين عناصر الفلسطينيين فهذا مقبول وهذا مرفوض . إن أهل المنطقة أضمن لكم (بفضل عقيدتهم) من الغرب نفسه لأن الغرب الذي ولد النازية والفاشية هو المؤهل ليلد ضدكم شيئا أفظع .

ليس في الهدنة خطر أكبر عليكم من خطر التعبئة النفسية التي تولدها المذابح والمحارق التي تقترفها قواتكم المسلحة ضد الفلسطينيين الذين أخرجوا بالأمس من ديارهم والذين سكنتم في مساكنهم . وأنتم لستم أبرع في المذابح والمحارق من هتلر على كل حال . ومع ذلك انظروا إلى مصيره . وإذا قلتم في أنفسكم : نخشى أن تؤدي الهدنة إلى ازدياد قوة العرب والمسلمين وتفوقهم فإن المسألة في جميع الأحوال تحتمل هذا الاحتمال . فالعداوة قائمة ولن تنطفيء مع الزمن إلا بالاقتناع . والعرب والمسلمون في عددهم الكبير وبلادهم الواسعة لا بد يوما أن يزدادوا قوة تناسب حجمهم . ولن يتحقق السلام بالأحرى إلا بموافقتكم وموافقة العرب والمسلمين أن تعيشوا في كنف المجتمع العربي الإسلامي في سلام وإحسان وهدوء بال ، وأن يبدأ ذلك بالاعتذار عما جرى لأهل فلسطين حتى الآن .

من وحي الأسبوع

* بدأ جورج بوش حياته سكيرا عربيدا بلطجيا إلى حد أنه قرف من حاله ذات يوم حين صحا من النوم بعد ليلة صاخبة فوجد أنه ملأ ثيابه وسرير نومه

بالقيء ونظر إلى وجهه في المرآة فرأى أنه ليس وجه إنسان محترم . هذه ليست شتيمة بل نبذة من اعترافاته شخصيا قبل أن يدخل باب السياسة .

فهل تغير جورج بوش الآن ؟ !

بل هو نفسه . لم يتغير جوهريا وإنما ظاهريا ! وفي مجيئه إلى بلادنا يوم نكبتنا ليهنئ جزارينا بذكرى ١٥ أيار رأيناه على منصة الكنيست يتقيأ تصريحات أقذر من قيئه الأول . فقد سكر حتى الثمالة بخمر القوة وجاء إلى الشرق الأوسط معربدا يتشفى في نكبتنا ويتوعدنا ويغالطنا في التاريخ . ولقد تقيأ على الحقيقة .. وتقيأ على الأنظمة العربية الموالية لأمريكا .. وتقيأ علينا نحن الفلسطينيين .. وتقيأ على نفسه أولا وآخرا . فليذهب الذين تقيأ عليهم ليغسلوا وجوههم .

* لم يأت جورج بوش بجديد في خطابه أمام الكنيست . فجميع المواقف التي أعلنها كان قد أعلنها في مناسبات سابقة . تأييده المطلق لإسرائيل .. توعده إيران وحزب الله وحماس .. حديثه التافه السقيم عن الحرية والديمقراطية .. تنويهه عن وحدة الإرث الثقافي وعن تجانس الطبيعة والرؤية بين أمريكا وإسرائيل ..

يخيل إلينا أن الرئيس الذي سينقلع بعد شهور معدودات من البيت الأبيض لن يكون لديه الوقت الكافي لارتكاب جريمة أكبر من جريمته في العراق . وعليه فإن تهديداته خرقاء وجوفاء . وكل ما في الأمر أنه وهو المسكون في روحه بإسرائيل والمنتمي إلى التراث الديني اليهودي والمعجب بهم إعجاب نكرة قليل الأصل فقير بالفكر والثقافة تجاه من يراهم أصحاب تاريخ قديم (بينما الأمريكيون لا تاريخ لهم) .. أراد وهو في نهاية عهده أن يحجز لنفسه مقعدا

في سجل الخالدين الصهاينة !! هذا . تقريبا . هو الهدف التافه لهذا الرئيس التافه الغبي .